عنوان المحاضرة – منهجية الدراسة في الاعجاز

The title of the lecture - Study methodology in the miracle

منهجية الدراسة في الاعجاز :

ليس المراد من هذا المحور الوقوف على مناهج اللغة كالمنهج الوصفي، والتاريخي الفيلولوجي، والتحليلي والمقارن ،والتقابلي وإنّما الغرض هو الوقوف على طريقة المؤلفين في تحديد وجوه الاعجاز لانّ الاعجاز في ذاته لا خلاف فيه ،والسؤال الذي يطرح نفسه؛ لماذا لم يتكلم في موضوع الاعجاز أحد من علماء السلف كابن عباس أو غيره من العلماء؟، ولعل الجواب هو تهيبهم وحرصهم مِن أن يتكلموا بغير المراد منه، وصونا للقرآن أن يكون غرضا للآراء والأهواء.

١–وجوه الاعجاز عند القدماء : لقد بدأت الاشارات الاولى على يد أبي عبيدة(١١٠–٢٠٩هـ)في كتابه (مجاز القرآن)والفراء (ت٢٠٧هـ)في كتابه(معاني القرآن) ولكنّها كانت دراسة لغوية بيانية أكثر منها في الاعجاز غير أنّه حدث شبه اجماع العلماء على أنّ أول من تكلّم في الاعجاز هو إبراهيم بن سيّار النّظام المعتزلي (ت٢٢٤هـ) شيخ الجاحظ وقال بالصَّرفة(أي بأنَّ الله أفقدهم القدرة على المعارضة أو سلبهم العلوم التي يمكن أن تعينهم على نظم كلام مضارع للقرآن ولولا ذلك لكان في مقدورهم الاتيان بمثله) وقد قال بهذا الرأي بعض من علماء المعتزلة منهم واصل بن عطاء البصري (ت١٣١هـ)،والجاحظ والرماني وابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) وبعض علماء السنة منهم الامام الماوردي البصري الشافعي(ت٤٥٠هـ) الجويني الشافعي (ت٤٧٨هـ)والغزالي الطوسي الشافعي (ت٥٠٥هـ) والرازي الشافعي (ت٦٠٦هـ) وشمس الدين الاصبهاني الشافعي (ت٧٤٩هـ) والفقيه أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت٩٧٧هـ) وابن حزم الظاهري(ت٤٥٦هـ) وابراهيم الانصاري المعروف بابن سراقة المالكي (ت٦٦٢هـ) وابن جزي الكلبي الغرناطي المالكي (ت٧٤٩هـ) وشمس الدين بن سليمان التركي المعروف بابن كمال باشا الحنفي (ت ٩٤٠هـ)أمّا علماء الشيعة فمنهم الشريف المرتضي الكاضمي الشيعي (ت٤٣٦هـ)و نصر الدين الطوسي الشيعي (ت٦٧٢هـ) وتتلخص وجهات نظرهم في ثلاثة اتجاهات هي :

*ذهبوا إلى أن نظم القرآن ليس معجزا وإنما الصرفة هي المعجزة.وهما فريقان :الاول يرى أن الله عزّوجلّ سلبهم القدرة على المعارضة.الثاني:أن الله تعالى صرف قلوبهم وهممهم مع وجود جميع الامكانات لديهم للمعارضة.

*وهؤلاء يعتقدون أنّ نظم القرآن هوالمعجز الاعظم ،ولكنه ليس الوجه الوحيد للإعجاز ومنها الصرفة.

* وقسم ذهب إلى عدد من وجوه البيان والاسلوب والمعاني ،وقالوا أنّ الصرفة وجه ضعيف ولكن لا حرج من القول به على سبيل التنَزُّلِ في الجدل.

وقد أثبت العلماء المخلصون بالحجة والبرهان خطأ هذا الرأي وخروجه عن الجادة نذكر منهم الخطابي والباقلاني ،والقاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ) ومنهم الجاحظ رغم أنّه أحد القائلين بها ،حيث ردّ على شيخه قائلا" فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حق ،وليس تأليف بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة .و الشيء الايجابي في فكرة الصَّرفة أنّها استثارت العقول والوجدان ودفعت بالعلماء إلى البحث والتنقيب في وجوه الإعجاز ،فاهتدوا إلى بيان أسرار البلاغة في كتاب الله العزيز، فانقلب السحر على الساحر وكان في ثنايا الباطل الحق الابلج، وكما قيل في المثل "رُبَّ ضارة نافعة". وخير ما يرد به على هؤلاء قول الحق تبارك وتعالى:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾الانعام٢٥.

- الجاحظ(ت٢٥٥هـ) فألّف و درس موضوع الاعجاز في كتاب مستقل(نظم القرآن) لم يصل الينا، وهو يرى أن الاعجاز كائن في نظمه وتأليفه وانتقد شيخه ،و الصَّرفة عنده ضرب من التدبير الإلهي، والعناية الربانية ،جاءت لمصلحة المسلمين ،وبهذا يكون قد مهد الطريق أمام الخطابي و عبد القاهر الجرجاني في بناء نظرية النظم.
- ابراهيم الخطابي(ت٣٨٨هـ) ألف رسالته(بيان إعجاز القرآن) وملخص رأيه" واعلم أنّ القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الالفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني " كما التفت إلى الاثر الذي يتركه سماع القرآن الكريم في النفس ،وجعله أحد وجوه الاعجاز. ويلاحظ على الخطابي أنه رفض القول بالصَّرفة، و كذا ما يتضمنه القرآن من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان .
- علي بن عيسى الرماني(ت٣٨٦هـ) ذكر في رسالته(النّكت في إعجاز القرآن) سبع أوجه للإعجاز هي: * ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.

*التحدي للكافة.

*الصَّرفة وهي عنده على وجهين،" منع داخلي ذاتي كائن في تركيب كل الانسان ،ومنع خارجي بفعل الله تعالى حيث صرفهم عن المعارضة وإن لم يكن في مقدورهم".

*البلاغة(أعلى –وسطى– أدنى)

***الاخبار الصادقة المستقبلية.**

***نقض العادة.**

***وقياسه بكل معجزة. واختار البلاغة وأسهب في شرحها وجعلها ثلاث طبقات ،العليا هي بلاغة القرآن، ثم قسم البلاغة الى عشرة أقسام. والمأخذ الذي أخذه العلماء على الرّماني هو جعله الصَّرفة أحد وجوه الاعجاز؛ لانّ هذا يتناقض مع الوجه البلاغي الذي اعتمده.**

- **أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني(ت٤٠٣هـ) متكلم أشعري، وفي كتابه(إعجاز القرآن) يذكر ثلاثة أوجه كالاتي:**

***الاخبار عن الغيوب. *قصص الاولين وأخبار الماضين.**

***أنّه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة الى الحد الذى يُعلم عجز الخلق عنه". ويخلص إلى أنّ البديع(كلّ المباحث والفنون البلاغية)ليست من وجوه الاعجاز ،وأنه أمر مختص بالقرآن ولا يوجد في كلام البشر.**

ولقد ظل دَيدَان العلماء في القرون التسعة الاولى على نفس الطرح ،وإن كان منهم من يعدد وجوه الاعجاز إلى عشرة كما فعل القرطبي(ت٦٤٨هـ)،وإلى اثني عشر وجها عند الزركشي(ت٧٩٤هـ) وقد لخص جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)جهود من سبقه في كتابيه (الاتقان في علوم القرآن) و(معترك الاقرن في إعجاز القرآن) ذكر أنّ بعض العلماء أنهى وجوه الاعجاز إلى ثمانين" وقد رأى العلامة أنّه لا نهاية لوجوه الاعجاز أخذا برأي السّكاكي في المفتاح.

٢- وجوه الاعجاز عند المحدثين : لقد عرف القرن الرابع عشر الهجري –العشرون ميلادي–حركة بحث في موضوع الاعجاز وإبراز وجوهه وألفوا فيه أسفارا قيّمة وكان الدافع الرد على تلك الهجمة الشرسة التي قادها المستشرقون وما يحملونه من أفكار وضعية متجلية في مذاهب اجتماعية واقتصادية ورأسمالية واشتراكية مشككة في الدور الايجابي للدين ،بل تلفيق التهم والشبهات للقرآن العظيم ولهذا تشكلت عندهم مجموعة من الاتجاهات منها:

الاتجاه الاول :أصحاب النزعة العلمية: لقد أهتم هؤلاء بوجوه الاعجاز من الناحية العلمية ،وقد كان لهذه النزعة جذور في تاريخ الفكر الاسلامي عند أبو حامد الغزالي والقاضي عياض، وابن رشد والامام فخر الدين الرازي ولكنها اشتدت في هذه الفترة وهي محاولة للتوفيق بين القرآن والعلم ،غير أن هناك منْ بالغ لحدِّ الاسراف وتحميل النص ما لا يحمله كطنطاوي جوهري في كتابيه(تفسير الجواهر–والقرآن والعلوم العصرية) ومنهم أيضا مهدي الاستامبولي(دين الغد: معجزات القرآن الكريم في العلم والسياسة الاجتماع). وفرقة ثانية التزمت الاعتدال في الطرح ولم يستشهدوا الا بالمسلم به من المقررات العلمية المتطابقة مع

النصوص القرآني كالشيخ الامام محمد عبده –رحمه الله–والشيخ محمد رشيد رضا (تفسير المنار)وكعلي فكري(القرآن ينبوع العلوم والعرفان) وكالشيخ متولي الشعراوي (معجزة القرآن) بل هناك من المستشرقين منْ لزموا الاعتدال(موريس بوكاي)في كتابه(دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة).

<u>الاتجاه الثاني</u> :هناك من العلماء من اختار حصر وجوه الاعجاز في عناوين رئيسية تنضوي تحتها معظم تلك الوجوه ،فجعلوها ثلاثة أقسام على النحو التالي:

"*الاعجاز اللغوي (البياني).وهو الذي وقع من جهته التحدي بالقرآن جملة وتفصيلا.

***الاعجاز العلمي.**

***الاعجاز التشريعي التهذيبي الاجتماعي".**

<u>الاتجاه الثالث أصحاب النزعة الادبية</u>: يقصر الاعجاز على الجانب البياني من القرآن لأنه الوجه الذي يبرز فيه التحدي أما ما فيه من حقائق علمية وأخبار الامم السابقة وكل الغيبيات هي دلائل نبوة المصطفى وأنّ هذا الكتاب هو من عند الله عزّ وجلّ ،نذكر من هؤلاء مصطفى صادق الرافعي في كتابه(إعجاز القرآن) حيث يركّز على إعجاز القرآن بموسيقية آياته، والحس الروحي الذي يبعثه في نفس قارئه، وأمين الخولي في كثير من أعماله(البلاغة وعلم النفس–بحث البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها–التفسير معالم حياته ومنهجه اليوم) وهو ينتقد التفسير العلمي، وكذلك فعل الشيخ محمود شلتوت شيخ الازهر الاسبق –رحمه الله– ونعتقد أن موقفهم هذا المتشدد من أجل سدّ الباب أمام الغلاة، ونذكر محمد عبد الله الدراز في كتابه(النبأ العظيم) حيث يقول" لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات فلعمري أنه في ترتيب آيه على هذا الوجه، لهو معجزة المعجزات" والعالم الشهيد سيد قطب حيث يقول:" إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، وهو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به" ونذكر عائشة عبد الرحمان في كتابها (الاعجاز البياني لقرآن ومسائل ابن الازرق) وهي تلخص قولها " وقصارى ما اطمأننت إليه في هذه المحاولة لفهم إعجاز القرآن الكريم، هو أنه ما من لفظ فيه أو حرف يمكن أن يقوم مقامه غيره ،بل ما من حركة أو نبرة لا تأخذ مكانها من ذلك البيان المعجز".

<u>الاتجاه الرابع</u> :وهذا الوجهة ترى أن الاعجاز كامن في المعان السامية للقرآن وتشريعه الحكيم والقيم الحضارية التي ينطوي عليها منهجه ،فالقرآن معجزة لما في رسالته من تعليمات عليا، وغايات نبيلة، وأغراض

شريفة، وأهداف سامية. ومنْ قال بهذا الرأي يتساءل لو كان إعجاز القرآن في فصاحته وبلاغته فحسب ؛كيف آمن به مِن غير العرب؟

خاتمة: وكخلاصة لهذا البحث نختم بها فنقول إنّ الإعجاز هو ترجمة حقيقية لسمة القرآن الدائمة ،ومن إعجازه أنّ الحديث عنه لا ينتهي، ورغم ما كُتب فيه قديما وحديثا ،سواء كانت جهود فردية أو جماعية (مؤسسات)فإنهم لم يصلوا فيه إلى ساحل .ولهذا وجدنا الدكتور فاضل السامرائي يقول: " إنّ أمر القرآن عجيب. يراه الاديب معجزا، ويراه اللغوي معجزا، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزا، ويراه علماء الاقتصاد معجزا، ويراه المرَبُّون معجزا، ويراه علماء النفس والمعنيون بالدراسات النفسية معجزا، ويراه علماء الاجتماع معجزا، ويراه المصلحون معجزا، ويراه كل راسخ في علمه معجزا" .بل وجدنا الدكتور أحمد رحماني في كتابه (نظريات الإعجاز القرآني) يطلق على وجوه الإعجاز مصطلح نظرية ويدعو إلى مفهوم تضافر أوجه الإعجاز من أجل الوصول إلى تكامل في فهم النص القرآني مستثمرة بذلك كل الخبرات والمواهب والقوانين العلمية في إطار نظرية المعرفة الاسلامية.

وصدق الله تعالى القائل في محكم تنزيله: ﴿ ألم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ البقرة.